علمية المنهج اللساني لدى عبد الرحمان الحاج صالح من خلال مؤلفاته في علوم اللسان

د. يونس بوناقة
ط.د/ محمد عبد الفتاح مقدود
جامعة حسيبة بن بوعلي – الشلف (الجزائر)
mekmedadef@gmail.com

تاريخ الإيداع: 2018/04/23 تاريخ النشر: 2019/12/01

*** الملخص بالعربية:**

عرف الدّرس اللغوي العربي تغيرات كبيرة منذ مطلع القرن التاسع عشر، خاصة مع ظهور النظرية اللسانية على يد الفرنسي فردناند ديسوسير، أين كان لهذا الأخير رؤية تخالف رؤى معاصريه من حيث تناولهم لفلسفة اللغة وكذا ماهيتها وعلة ظهورها.

ولا شك أن هذا الانفجار النظري للنظرية اللسانية على يد اللغويين الغربيين لم يكن من العدم؛ حيث سبقته إرهاصات من مختلف الحضارات، وقد امتدت الدراسات اللسانية لتضفي بظلالها على الأقطار في مختلف البقاع، ما ولّد حافز السير على نفس المنوال عند العرب، ومن الذين بادروا إلى المقارعة اللسانية في ضوء النظرية السوسيرية اللغوي الجزائري "عبد الرحمان الحاج صالح" رحمه الله، والذي ما فتئ يشتغل على هذا التوّجه بمختلف نظرياته محاولا الذهاب به إلى أصله والعودة به إلى مجراه العلمي الحقيقي.

وعلى هذا الأساس سنشتغل في مداخلتنا هذه مركزين على الرؤية العلمية للغوي الجزائري عبد الرحمان حاج صالح –رحمه الله- مبرزين بذلك الجهود اللسانية في المجال من خلال مؤلفاته في المجال.

*** الكلمات الدالة:** الفكر العلمي، علوم اللسان، عبد الرحمان حاج صالح، اللسانيات، مؤلفات علمية.

Summary:

The Arabic linguistic lesson has undergone meny major changes since the beginning of the nineteenth century, especially with the emergence of the linguistic theory by "Ferdinand Desoucier" where he had supposed contradicted his contemporaries opinions as they learned philosophy of language as well as its meaning and its appearance. This theoretical explosion of linguistics theory by Western linguists was not deleted, It was preceded by anecdotes from various civilizations. The linguistic studies were growing over the various regions. This gave rise to the incentive to follow the same pattern among the Arabs.

Linguistic wrestling in the light of the theory Alsosir language of Algeria, "Abdelrahman Haj Saleh" which has been working on this approach in various theories, trying to go to the origin and return to the real scientific.So, we will employ two centers on the scientific vision of the linguistic, "Abderrahmane Haj Saleh's linguistic efforts in the field through his writings.

Key words: Scientific thought, linguistics, Abderrahmane Haj Saleh, linguistics, scientific works.

تمهيد:

كانت اللغة العربية وستظل الكيان العلمي الوحيد الذي يقوم على توحيد التوجهات والأفكار داخل المجتمع الواحد، لذا لا تمثل اللغة تلك الملكة التي يستعملها البشر للتواصل والتفاهم فيما بينهم بأدلة صوتية فحسب، بل تتعدى ذلك بكثير، فقد ذهب نفر من العلماء والدارسين اللغوين إلى دراستها بشكل أعمق، فمنها ما يتعلق بطبيعتها، ووظيفتها، وخصائصها، وكذا علاقتها بالنفس البشرية، عبر الأزمان التا ريخية قديمها وحديثها1.

ونلتمس هذا أكثر في تعريف ابن جنّي للغة (ت392هـ) حينما قال: "أما حدّها فإنها أصوات يُعبر بها كل قوم عن أغراضهم"[2]، وهذا الرأي تتقاطع معه عديد الأراء الحديثة[3]؛ وهنا نجد تنازل اللغة هو قائم من حيث العلة من وجه، ومن حيث الفكرة من وجه آخر.

ومما ميز الدارسين العرب للغة كونهم علماء دين ومنطق وفقه وعقيدة؛ هو بقاؤهم أُسارى الضابط الشرعي، وهذا ما خلّف لديهم انكماشا في بعض الآراء والنظريات التي من شأنها تناول النّص بمعزل عن قائله أو دراسة النص كبنية لذاته ومن أجل ذاته.

على عكس نُظرائهم من اللغويين اليونان، والذين تمتعوا بالنزعة الفلسفية الحرة؛ فطغى التأثير الفلسفي على الدرس اللغوي مما ولد توجه اللا قيد واللا حد في تناول الدرس اللغوي، فاختلفوا في جدلية نشأة اللغة، وراح نفر منهم إلى الإقرار بأن أصل اللغة الوضع فيما نادى البعض الآخر بأن أصلها يكمن في الاستعمال ونافح آخرون في كونها وليدة العرف والتقليد وغيرها[4].

1/بوادر انبعاث الاهتمام العربي بالدرس اللساني:

لدى القدماء :

معلوم لدى العرب أن جلّ الدراسات التي اهتموا بها انطلقت بعد نزول الوحي وتدوين الحديث5، فبعد أن نزل القرآن الكريم، بدأت ملامح الدراسات اللغوية العربية تتمظهر في شكل آراء ونظريات وقواعد، وذلك من خلال اهتمامهم –المسلمين- بالمحافظة على القرآن الكريم، لكونه دستوروضابط اللغة العربية، فإذا به يكون منطلق العقل العربي إلى دراسة نصوص اللغة، ومتونها ، وقواعدها النحوية، والصرفية، والصوتية، والبلاغية، وإذا بالعلماء منذ عهد مبكر يبدؤون في اللمسات الأولى في العلوم العربية، استهدافا لخدمة النص القرآني الكريم[6]، من خلال الدراسات اللغوية العربية التي انطلقت مع قيام الحركة العلمية في القرن الثاني هجري وهذا مع بداية التحول الفكري والحضاري الذي أحدثه القرآن الكريم في البيئة العربية .

ومما شدّ انتباهنا دون سابق نظر ولا إعمال للفكر أنّ آراء العلماء العرب القدماء على اختلاف توجهاتهم التي كانت إحدى مميزات عصرهم، لا تكاد تختلف عن النظريات اللسانية الحديثة اختلافا إلا في التعبير ودقة الصرامة الموضوعية في التعامل مع هذه الظاهرة[7].

وفي هذا دليل على أن الدرس العربي عرف بواعث لسانية لم يكتب لها أن تطفو للساحة اللغوية تحت مسمى اللسانيات إلاّ أنها ضُمّنت في مؤلفات العرب القدماء.

ومعروف أن دعائم الدرس اللغوي العربي قامت على عوامل رئيسة أبرزها وأهمها:

1/ العامل الديني من خلال القرآن والسنة

2/ عامل حفظ النص الديني من اللحن وهذا من خلال اصطلاح القواعد النحوية نتيجة العجمة التي حلت بالمنطقة العربية جراء اعتناقهم للإسلام.

لدى المحدثين:

عرف العرب خلال العصر الحديث بوادر لسانية في الدرس اللغوي من خلال:

1/ النهضة الفكرية العربية والتي نتج عنها مشاكل عديدة أبرزها:

أ/ المشكلة اللغوية خلال الحقبة العثمانية والتي وصل من خلالها العثمانين إلى حقيقة العروة الوثقى بين العربي ولغته، وأهمية الوازع الديني في تقويتها وتثبيتها وتفعيلها

ب/ إرهاصات التغير من خلال حملت نابليون بونابارت (Napoléon Bonaparte) والتي روج لها بعض الشيوعيون على أنها سبب في النهضة الفكرية العربية، وفي الحقيقة قال بهذا الرأي من كانوا مناوئين للدولة العثمانية.

لكن على العموم كان القرن الثامن عشر بداية جديدة في الحركة الفكرية على الصعيد العالمي عموما وفي الوطن العربي خصوصا.

ج/ بعض التشكلات الإصلاحية للبنية اللغوية العربية وارتكز الأمر أساسا على الترجمة بالإضافة إلى تناول العلوم العربية الأصيلة بالنقد وإعادة البلورة نتيجة وصول العلوم الدقيقة إلى البلاد العربية[8].

2/ المرحلة الاستشرافية، فرغم الجهود التي قدمها اللغويين العرب من رواد النهضة أمثال الطهطاوي وجرجي زيدان وغيرهم لم يشفع ذلك لتأسيس توجه لغوي صريح يجعل من الموروث العربي المعاصر سيف مقارعة

لنظيره الغربي، حتى امتزجت روح العروبة بالاستشراق الذي أحدث زوبعة في عديد الأذهان وأخلط أوراق عديد الدارسين، ويمكننا القول أن الاستشراق الذي حطّ رحاله على الموروث العربي خلال الفترة الحديثة كان سلاحا ذو حدين؛ ومعه كان تلاقح فكري بين المحيط الأورو متوسطي أين ساهم هذا الأخير في بروز رؤى ونظريات جديدة في حقل المعارف اللغوية واللسانية[9].

خلال هذه التظافرات الفكرية داخل الرقعة العربية تولد ما يعرف بالدرس اللساني العربي وفيها بزغ وبرع الدارسون العرب في استجلاء الحيثيات اللسانية من خلال اتجاهين أساسين:

أ/ الاتجاه التاريخي المقارن وظهر هذا مع أعمال رفعة الطهطاوي وجرجي زيدان واليازجي وغيرهم

ب/ الاتجاه الوصفي والذي انطلق مع أول محاولة للتأليف في مجال الدراسات اللغوية الحديثة سنة 1941[10].

وتعتبر الانطلاقة الفعلية لهذا التوجه مع اللغوي العربي "إبراهيم أنيس" الذي قدم مجهودات لا يستهان بها ناهيك على الآراء القويمة في حقل الدراسات اللغوية واللسانية، وقد ساد هذا التوجه وشاع في القطر العربي بفضل الجهود التي أعقبت إبراهيم أنيس سواء من تلامذته أو غيره من الدارسين والباحثين على غرار عبد الرحمان أيوب وتمام حسان وغيرهم، وقد سار هؤلاء الدارسين وفق ثلاثة اتجاهات لازمت تقديم النظرة اللغوية هي:

1/ اتجاه النظرة الوصفية ونقد التراث اللغوي العربي وغير العربي

2/ اتجاه الدراسة البنوية والتحليل البنيوي

3/ اتجاه تطبيق النظريات الحديثة (الغربية) على اللغة[11]

وقد كانت هذه الاتجاهات مشتغلة في أساسها على استدراك ما فات على أهل التراث وتطعيم ما أنتجته الدراسات الحديثة متأرجحة في ذلك بين التوليد والتحويل والتوظيف[12].

وقد سار على هذا المنوال اللغوي الجزائري عبد الرحمان حاج صالح حين اشتغل في حياته على نظريات لسانية برؤية غربية وخلفية عربية تراثية، ولعلّ أهم ما انماز به عن غيره هو الدقة والجدة مهملا بذلك الحشو وتكرار كلام غيره على الصعيدين الفكري أو الإنتاجي، وهذا من خلال منهجه العلمي في تناوله للدرس اللغوي اللساني من خلال مؤلفات عديدة في مجال علوم اللسان.

2/ الفكر العلمي لدى عبد الرحمان حاج صالح من خلال مؤلفاته في علوم اللسان:

اعتنى عبد الرحمان حاج صالح بالتوجه اللساني عناية بالغة، وهو الذي لم يفوت موضوعا منه إلا كان له متعرضا بالتنقيب والتمحيص مارا به على التراث ومقارنا إياه وفق ما تقتضيه المسلمات المنطقية والعقلية في شتى علوم المنطق والآلة.

وبرزت جهود عبد الرحمان حاج صالح رحمه الله أكثر فأكثر وصارت متنوعة ومختلفة ململمة لكل ما يكتنف الدرس اللغوي اللساني الحديث، وتجلى ذلك في جزء منها من خلال كتابه "بحوث ودراسات في علوم اللسان"، وقد كان هذا العمل بمثابة مساهمة لأجل استثمار وتطوير مراحل الدراسات اللغوية الغربية أكثر فأكثر ومحاولة التماشي وعقلية المزاوجة والمواشجة بين العلوم والمعارف، وهذا كله لخدمة اللغة العربية، وتنوير حال القارئ بطرق جديدة خاصة وأن الباحث اللغوي اليوم تائها أكثر منه مستقر على الآراء والنظريات.

ونلمس جهود عبد الرحمان حاج صالح –رحمه الله- العلمية في مجالات شتى نذكر منها:

1/ في مجال المصطلحية وعلوم المصطلح:

من المسلمات المنطقية الخالصة المستقرة أن مفاتيح العلوم مصطلحاتها واعلامها، إذ أصبحت المصطلحية في عصرنا تتدحرج بالباحثين من فرع الى آخر ومن فن إلى آخر، فما إن يتهيأ البحث لتجاوز مخاضه حتى يأتي عليه المتخصصين بالنفي أو الهدم بحجة فساد المصطلح أو التركيب أو تداخل سياق المصطلحات مع بعضها، وباعتبار أن عبد الرحمان الحاج صالح أحد أعضاء المنظمة العربية للتربية والثقافة فإنه من الأحقية بمكان في وضع المصطلحات وسن المفردات والسياقات والتعقيب عليها بالتحليل او التدليل من خلال الاستناد في ذلك إلى آليات ذلكم سواء بالترجمة أو الاشتقاق أو النحت او التأصيل المعجمي أو غيرها...، واستحداث او صناعة المصطلح في الغالب ما تتأتى من أجل فك خناق الضرورة الملحة او الحاجة القصوى، وهو ما جعلت في سبيله المجامع اللغوية بدأ من مجمع دمشق إلى آخر مجمع بالجزائر برئاسة العلامة المرحوم عبد الرحمان حاج صالح، لكن هذا الزخم والتراكم المعرفي الذي تلاقحت نظرياته اليوم في الساحة اللغوية العربية جعل من مجهودات المجامع هشيما ذرته رياح الحداثة والتّلاقح اللّغوي والمعرفي بين الشعوب[13]، أو نتيجة التلوث اللغوي كما يحلو لعبد السلام المَسَدي تسميته[14].

ولعل أهم ما أنجبته دراسة وأفكار عبد الرحمان حاج صالح في مجال علوم اللسان نوجزه فيمايلي على سبيل الذكر لا الحصر:

- "معجم المصطلحات الإعلامية (عربي - فرنسي) 1972، مطبوع.
- معجم مصطلحات علم اللسان (عربي – فرنسي)، مطبوع.

- المعجم الموحد لمصطلحات اللسانيات، صدر عن منظمة الأليسكو، الطبعة الأولى في 1989، والثانية في 2002.
- مسائل في مصطلحات التجويد لفضيلة الشيخ الجيلالي الحنيفي والإجابة عنها"[15].

2/ في مجال الرقمنة الحاسوبية اللغوية:

ويتلخص هذا في الاتجاه الذي دأب عليه عبد الرحمان حاج صالح من خلال سعيه الحثيث نحو تطوير القاعدة اللغوية في مجال البرمجة، من خلال جعل اللغة كيانا رقميا يتآلف معه وفق منطلقات منطقية ورياضية رقمية، وهذا بالتأكيد على الاستخدام الفعلي للحاسوب والبرامج الرقمية في مجال الحوسبة اللغوية للعربية مقارنة باللغات الأخرى في الوقت نفسه طبعا، وعرف هذا عنده –رحمه الله- بمشروع الذخيرة اللغوية، واستند في تجسيده للمشروع على كوكبة طلابه في ميدان الترجمة والتوثيق ومكاشفة الأخطاء بشكل آلي... وهذا من خلال الذكاء الاصطناعي[16].

ولأجل هذا الهدف السامي كان يركز ويلح عبد الرحمان حاج صالح على تيسير واختصار الجهد والطريق أمام الباحث حتى يسهل عليه إصابة المعنى بأقل جهد وأكثر دقة، وأشار في الوقت نفسه إلى أن مثل هاته البحوث في مجال الذخيرة وحوسبة اللغة العربية تحتاج إلى متخصصين ينتمون إلى آفاق علمية مختلفة قاصدا بذلك الجمع بين العلوم الإنسانية والرقمية، فهي من قبيل البحوث التي يسميها علماء اليوم بـ (Research Interdiciplinary)، أي البحوث المتعددة التخصصات، كما أن النظريات اللغوية الحديثة حسبه -رحمه الله- غير كافية خصوصا وأنها أتت عن تأمل التراث اللغوي الغربي، وكذلك ينوه –رحمه الله- إلى الموروث العربي الذي يعتبر قوة دفع في مجال اللسانيات الحاسوبية التي تعالج اللغة وفق مسلمات المنطق الرياضي[17]، ولعله بسبب هذا العمل وفي إطار هذا المسعى يمكن القضاء على مشكلة المصطلح وكذا إعداده من خلال تأهيل العنصر البشري الذي يوصلنا إلى الاضطلاع[18].

3/ في مجال الترجمة:

تعد الترجمة لبنة أساسية في بناء حضارة قويمة ذات دعائم علمية وفكرية سليمة وموصلة لمواكبة الركب الحضاري في مختلف المجالات، فهي سمة رائعة للمجتمعات البشرية عبر العصور المختلفة كونها مفتاح الانفتاح على العوالم والمعارف الأخرى[19].

ولو سِرنا منهجين لهذا المسعى ومُسلمين بهذا الفكر فإنه من الواجب علينا الخلود إلى تعريب كامل وشامل للوثائق والمعطيات العلمية العالمية منها والمحلية وفق مخططات الترجمة المبرمجة[20]، لأنّه مهما أتقنّا في عالم البحث ونفسية الباحث اليوم، سنجد حاجته للغة اخرى ضرورة لازمة في بناء شخصيته العلمية، وعليه فإنّ

ذلك لا يشفع له أمام وجوب نشر تلك المعارف الأجنبية باللغة العربية، حتى تسهل الحركات العلمية في الأوساط الأكاديمية ويكون من السهل الوصول إلى المبتغى وفهم المقصد[21].

و لهذا نجده يؤكد –رحمه الله- على "ضرورة إقامة هيئات متعددة للترجمة في الوطن العربي، بشرط أن يحصل بينها التواصل القائم على التنسيق الدائم. ويحث على مسألة تثمين جهود المترجمين أي بإحداث تمايزات بين المجهودات طمعا في تربية النفوس على العطاء أكثر، مستدلا على هذا بمقولة طه حسين يوم سألوه عن سبيل الرقي العلمي فقال: ترجموا، ترجموا ثم ترجموا، وإن كنا برأينا نخالف الفكرة (أي أن إلحاح طه على الترجمة لم يكن لأجل النضج الفكري بقدر ما كان نتيجة لما في نفسه من مختلجات ورغبات في نقل تأثره بالغرب إلى العرب)، ومن بين ما ساهم به عبد الرحمان حاج صالح رحمه الله كتابه الموسوم بـ: الأمثال الشعبية الجزائرية لقادة بوتارن والكتاب صادر عن المطبوعات الجامعية سنة 1987م[22].

ونصل في الأخير إلى أن جهود عبد الرحمان حاج صالح اللغوية اتسعت وتنوعت بين التأرجح القائم على الجديد الغربي والمؤسس وفق أصول عربية في حدود مقتضيات الواقع، كل هذا رغبة منه رحمه الله في تنوير الباحث المعاصر بما يهون عليه أتعاب البحث وعملية التواصل ونقل المعارف من أجل خدمة المجال الفكري عموما والإبداعي خصوصا.

3/مراجع البحث:

1) ابن جني، الخصائص، تح: محمد علي النجار، دار الكتب المصرية، القاهرة، د.ط، 1952.
2) أحمد مومن، اللسانيات بين النشأة والتطور، المطبعة الجهوية، قسنطينة، الجزائر، ط3، 2007.
3) حافظ إسماعيل علوي، اللسانيات في الثقافة العربية المعاصرة، دراسة تحليلية نقدية في قضايا التلقي وإشكالاته، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، ط1، 2009.
4) سمير شريف إستيتية، اللسانيات المجال والظيفة والمنهج، عالم الكتب الحديثة، ص02، 2008.
5) صالح بلعيد، مقاربات منهاجية، دار هومة، الجزائر، ط01، 2004.
6) عبد الجليل مرتاض، اللغة بين الوضع والاعتباط، دار هومة، الجزائر، د.ط، 2015.
7) عبد الرحمان حاج صالح، بحوث ودراسات في اللسانيات العربية، مطبعة المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، وحدة الرغاية، موفم للنشر، الجزائر، ط01، 2012.
8) عبد السلام المسدي، العرب والانتحار اللغوي، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، لبنان، ط01، 2011.
9) عبد الصّبور شاهين، في علم اللغة العام، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط1، 1989.
10) محمود عكاشة، علم اللغة مدخل نظري في علم اللغة، دار الكتب المصرية، القاهرة، ط1، 2007.

11) مختار عمر، البحث اللغوي عند العرب مع دراسة لقضية التأثير والتأثر، عالم الكتاب، القاهرة، ط6، 1988.

12) مصطفى غلفان، اللسانيات في الثقافة العربية الحديثة-حفريات النشأة والتكوين، دار المدارس، المغرب، ط1، 2006.

13) نعمان بوقرة، اللسانيات اتجاهاتها وقضاياها الراهنة، دار الكتاب الحديث،إربد، سورية، د.ط، 2009.

هوامش البحث:

[1] ينظر، نعمان بوقرة، اللسانيات اتجاهاتها وقضاياها الراهنة، دار الكتاب الحديث،إربد، سورية، د.ط، 2009، ص3-4.

[2] ابن جني، الخصائص، تح: محمد علي النجار، دار الكتب المصرية، القاهرة، د.ط، 1952، ج1، ص33.

[3] ينظر، محمود عكاشة، علم اللغة مدخل نظري في علم اللغة، دار الكتب المصرية، القاهرة، ط1، 2007، ص16.

[4] ينظر، أحمد مومن، اللسانيات بين النشأة والتطور، المطبعة الجهوية، قسنطينة، الجزائر، ط3، 20047، ص16.

[5] ينظر، مختار عمر، البحث اللغوي عند العرب مع دراسة لقضية التأثير والتأثر، عالم الكتاب، القاهرة، ط6، 1988، ص79.

[6] ينظر، عبد الصّبور شاهين، في علم اللغة العام، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط1، 1989، ص10.

[7] ينظر، عبد الجليل مرتاض، اللغة بين الوضع والاعتباط، دار هومة، الجزائر، د.ط، 2015، ص23.

[8] ينظر، مصطفى غلفان، اللسانيات في الثقافة العربية الحديثة-حفريات النشأة والتكوين، دار المدارس، المغرب، ط1، 2006، ص7.

[9] ينظر، حافظ إسماعيل علوي، اللسانيات في الثقافة العربية المعاصرة، دراسة تحليلية نقدية في قضايا التلقي وإشكالاته، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، ط1، 2009، ص32.

10 ينظر، نفسه، ص43.

[11] ينظر، السابق، ص44.

[12] ينظر، نفسه، ص 44.

[13] ينظر، عبد الرحمان حاج صالح، بحوث ودراسات في اللسانيات العربية، مطبعة المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، وحدة الرغاية، موفم للنشر، الجزائر، ط01، 2012، ص371.

14 ينظر، عبد السلام المسدي، العرب والانتحار اللغوي، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، لبنان، ط01، 2011، ص139.

15 ينظر، صالح بلعيد، مقاربات منهاجية، دار هومة، الجزائر، ط01، 2004، ص155.

16 ينظر، نفسه، ص157-158.

17 ينظر، عبد الرحمان حاج صالح، بحوث ودراسات في اللسانيات العربية، ص231.

18 ينظر، صالح بلعيد، مقاربات منهاجية ، ص159.

[19] ينظر، سمير شريف إستيتية، اللسانيات المجال والظيفة والمنهج، عالم الكتب الحديثة، ص02، 2008، ص387.

[20] ينظر، صالح بلعيد، مقاربات منهاجية ، ص155.

21 ينظر، عبد الرحمان حاج صالح، بحوث ودراسات في اللسانيات العربية، ص373

[22] ينظر، نفسه، ص155.